المطلب الحادي عشر
النداء من حيث العموم والخصوص

أولًا: نداء الجنس:

ولا بدَّ في البداية في بيان مصطلح: (الجنس).. جاء في (المغرب): "(الجنس) عن أئمَّةِ اللُّغة الضَّرب من كلِّ شيء، والجمع: (أجناس)، وهو أعمُّ من (النَّوع)، يقال: (الحيوان جنس)، و(الإنسان نوع)؛ لأنَّه أخصُّ من قولنا: (حيوان)، وإن كان جنسا بالنِّسبة إلى ما تحته.."[1].

أقول: وعلى ذلك فالجنس –بالكسر– أعمُّ من النَّوع، وهو كلُّ ضرب من الشَّيء، فالإبل جنس من البهائم. وعلى ذلك فإنَّه ينظر إلى (الإنسان) مثلا من منظورين:

الأوَّل: بالنِّسبة لما فوقه فهو نوع.

الثَّاني: بالنِّسبة لما تحته فهو جنس، فيكون النَّوع الذَّكر والأنثى. وهو جنسٌ قريب فلا جنس تحته، وإنما تحته النَّوع. و(الجِنْس) لغة: الضَّرب من كلِّ شيء، وهو أعمُّ من النَّوع[2]. وعلى ذلك فالجنس ثلاثة أقسام: جنس قريب، وهو ما لا جنس تحته، وإنما تحته الأنواع كالإنسان والفرس ونحوهما أو جنس بعيد، وهو ما لا جنس فوقه، وتحته الأجناس كالجوهر–فليس فوقه جنس، وتحته أجناس، وهي الجسم والنَّامي والحيوان–

---

(١) المغرب، مادَّة: (جنس) (١/١٦٤).

(٢) انظر: مادَّة: (الجنس) في كلٍّ من (الصِّحاح) (٣/٩١٥)، لسان العرب (٦/٤٣)، مختار الصِّحاح (ص:١١٩)، المصباح المنير (١/١١١)، التَّوقيف على مهمات التَّعاريف (ص:٢٥٦)، المغرب (١/١٦٤).

وجنس متوسِّط، وهو ما فوقه جنس وتحته جنس كالجسم فإنَّ فوقه الجوهر، وتحته الحيوان.

وعند (المنطقيين) هو كلِّيٌّ مَقُول على كثيرينَ مختلفينَ بالحقيقة في جواب ما هو؟ مثل: (حيوان) فهو يصدق على أنواعٍ كثيرة مختلفة الحقائق كإنسان وفرس[(١)].

وبناءً على ما سبق من التَّعريف فإنِّي أستعرض الآيات التي تصلح أن تكون خطابًا للجنس. فقد جاء في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق:٦] أنَّه (خطاب الجنس)[(٢)]. وجاء في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ -بالضَّمِّ- على (خطاب الجنس)؛ لأنَّ النِّداء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ للجنس، نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]؛ فإنَّ المراد جنس النَّاس لا كلَّ فرد، وإلا فمعلوم أنَّ غير المكلَّف لم يدخل تحت هذا الخطاب، وهذا يغلَّب في خطاب أهل (مكَّة) -كما سبق-[(٣)].

ورجَّحَ الأصوليُّون دخول النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الخطاب بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾[(٤)].

---

(١) انظر: شرح تنقيح الفصول (٤٠٩/١)، انظر: التَّعريفات (ص:١٩٣)، شرح السُّلم المنورق للملوي بحاشية الصبَّان (ص:٦٨)، شرح الشَّيخ درويش القويسني على السُّلَّم (ص:١٥-١٧)، تسهيلُ المنطق، للبدخشاني (ص:٤٧)، التَّعاريف، للمناوي (ص:٢٥٦)، الحدود الأنيقة (ص:٧٢-٧٣)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثاني (ص:٩-١٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤٣٧/١٠)، البحر المديد (٢٦٩/٧)، تفسير الرَّازي (٣١/ ٩٧ – ٩٨) (١٠٢/٣١)، غرائب القرآن (٤٦٨/٦)، القرطبي (٢٧١/١٩)، روح المعاني (٨٠/٣٠)، التَّحرير والتَّنوير (٢٢١/٣٠)، أضواء البيان (٤٦٨/٨)، ابن عادل (١٠/ ٢٧٨)، الكشاف (٢٣٦/٤)، المحرر الوجيز (٤٥٦/٥)، تفسير النسفي (٦١٩/٣)، تفسير ابن جزي (٤٦٤/٢).

(٣) سبق بيان ذلك في الخطاب المكيِّ والخطاب المدني.

(٤) قال الآمدي رَحِمَهُٱللَّهُ: يدخل الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في عمومه عندنا، وعند أكثر العلماء، خلافًا لطائفة من الفقهاء والمتكلِّمين. الإحكام (٢٩٢/٢-٢٩٤)، وفي (المحصول): "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ عامٌّ في حقِّهما، ومنهم من خصَّصه بالأمَّة، قال: لأنَّ منصب الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقتضي إفراده بالذِّكر، وهو باطل؛ لأنَّ اللَّفظ عامٌّ ولا مانع من دخول الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه. وقال الصَّيرفيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: كلُّ خطاب لم يصدَّر بأمر الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بتبليغه ولكن ورد مطلقًا فالرَّسول=

وفي القرآن سورتان أولهما: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إحداهما في النِّصف الأوَّل، وهي السُّورة الرَّابعة منه، وهي (سورة النِّساء)، والثَّانية في النِّصف الثَّاني منه وهي (سورة الحجِّ). والأولى تشتمل على شرح المبدأ، والثَّانية تشتمل على شرح المعاد..فتأمَّل هذا التَّرتيب ما أوقعه في البلاغة"[1].

قال الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفردات): "والنَّاس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم النَّاس تجوُّزا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانيَّة، وهو وجود العقل والذِّكر، وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصَّة به، فإنَّ كلَّ شيءٍ عدم فعله المختصُّ به لا يكاد يستحقُّ اسمه، كاليد فإنَّها إذا عدمت فعلها الخاصَّ بها فإطلاق اليد عليها كإطلاقها على يد السَّرير ورجله. فقوله وَجَلَّ: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٣]، أي: كما يفعل من وجد فيه معنى الإنسانيَّة، ولم يقصد بالإنسان عينًا واحدًا بل قصد المعنى، وكذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:٥٤]، أي: من وجد فيه معنى الإنسانيَّة أي: إنسان كان"[2]. وقال الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وربما قصد به النُّوع كما هو وعلى هذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:٥٤]. قيل في الآية: إنَّ المراد بالنَّاس هو النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل: العرب"[3].

=صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخاطب به كغيره، وكلُّ ما كان مصدَّرًا بأمر الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبليغه فذلك لا يتناوله كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [الأعراف:١٥٨]. المحصول (٣/١٩٩-٢٠٠). وفي (اللُّمع): "إذا خوطب النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخطاب خاصٍّ لم يدخل معه غيره إلا بدليل كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل:١-٢]". اللمع (١/٢٢). انظر: المسودة (١/٣٠)، القواعد والفوائد الأصولية (١/٢٠٧)، المستصفى (١/٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢) قواطع الأدلة (١/١٢١)، التقرير والتحبير (١/٢٨٨)، الفصول في الأصول (١/١٣٧).

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٦-٢٢٧).

(٢) مفردات القرآن الكريم، للرَّاغب، مادَّة: (نوس) (ص:٨٢٩)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/٤٧٦)، الدر المنثور (٢/٥٦٦- ٥٦٧)، روح المعاني (٥/٥٧-٦٢)، تفسير أبي السعود (٢/١٩٠)، النكت والعيون (١/٤٩٦)، المحرر الوجيز (٢/ ٦٨)، البيضاوي (٢/٧٩)، زاد المسير (٢/٤٢١)، (٢/٣٦٤)، (٤/٥٥١)، ابن كثير (٢/٣٣٦)، أحكام القرآن، للجصَّاص (٣/١٧١)،=

والحاصل أنَّ النَّاس هنا عامٌّ أريد به الخصوص، وهو النَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣].

فالنَّاس الأولى عامٌّ أريد به خصوص رجل واحد، وهو (نعيم بن مسعود الأشجعي).

ويتبيَّن مما سبق:

أ. أنَّ نداء الجنس يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمِّ أنواع الخطاب (ما صَدُقًا)، أي: بالنِّسبة لما يندرج تحته من أفراد.

ب. أنَّ غير المكلَّف لا يدخل في هذا الخطاب..

ج. أن غير المشافهين بالخطاب يدخلون في الخطاب بالإجماع، لكن هل يدخلون بطريق الحقيقة أم المجاز؟ قولان تقدم بيان الراجح منهما.

ثانيًا: نداء النوع:

أمَّا من حيث ذكر هذا اللُّون من الخطاب، فقد جاء عقب (خطاب الجنس)؛ لأنَّه أخصُّ منه.

وأمَّا ما يتعلَّق بالتَّعريف فقد جاء في (المعجم الوسيط) أنَّ (النَّوع): "الصَّنف من كلِّ شيءٍ[1]، ويقال: (ما أدْرِي على أيِّ نَوْعٍ هُوَ؟ أي: أيِّ وَجْهٍ).

=الإتقان (٤٣/٢)، البرهان في علوم القرآن (٢٢٧/٢)، أضواء البيان (٣٤٠/٩)، البغوي (٢٥٦/١)، السراج المنير (٣١٠/١).

(١) انظر: مادَّة: (الجنس) في كلٍ من (الصِّحاح) (٩١٥/٣)، لسان العرب (٤٣/٦)، مختار الصِّحاح (ص:١١٩)، المصباح المنير (١١١/١)، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف (ص:٢٥٦)، المغرب (١٦٤/١). ومادَّة: (النَّوع) في (المعجم الوسيط) (٩٦٤/٢)، ومادَّة: (صنف) في (مقاييس اللغة) (٣١٣/٣).

وفي (اصطلاح المناطقة): كُلِّيٌّ مَقُول على واحد أو على كثيرين متفقين في الحقائق في جواب ما هو؟ مثل: (إنسان)، فهو يصدق على أفراد كثيرة متَّفقة الحقائق، كزيد وعمرو[1].

وفي (علم الأحياء): وحدةٌ تصنيفيَّة أقلُّ من الجنس يتمثل في أفرادها نموذج مشترك محدود ثابت وراثي، جمع: أنواع"[2]. وبناءً على ما سبق من تعريف (الجنس) وتعريف (النَّوع) فإنِّي أستعرضُ الآيات التي تصلحُ أن تكون خطابًا للنَّوع.

فقد جاء في (نظم الدُّرر) في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١].

"لما كان خلق الحيوان أدلَّ على الوحدانيَّة والقهر بما خالف به الجمادات من الحياة التي لا يقدر على الانفكاك عنها قبل أجله، وبما له من أمور اضطراريَّة لا محيص له عنها، وأمور اختياريَّة موكولة في الظَّاهر إلى مشيئته، وكان أعجبه خلقًا الإنسان بما له من قوَّة النُّطق، قال دالا على ما دلَّ عليه بخلق الخافقين لافتا القول إلى (خطاب النَّوع) كلِّه إيذانًا بتأهُّلهم للخطاب، وترقِّيهم في عُلا الأسباب، من غير عطفٍ، إيذانًا بأن كلا من خلقهم وخلق ما قبلهم مستقل بالدِّلالة على ما سيق له: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: أيُّها النَّاس المدعون لإلهية غيره"[3].

---

(١) انظر: التَّعريفات (ص:٣٠٢)، شرح السُّلم المنورق للملوي بحاشية الصَّبان (ص:٧٠)، تسهيل المنطق، للبدخشاني (ص:٤٦)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثَّاني (ص:٩ – ١٠).

(٢) بقليل من التَّصرف عن (المعجم الوسيط): مادَّة: (نوع) (٩٦٤/٢)، وانظر: تاج العروس (٢٨٨/٢٢).

(٣) نظم الدُّرر ١٦ (٤٥٥/٦).

وقد مثَّلَ لخطاب (النَّوع) الزَّركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البرهان)، والسُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإتقان)[1] بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، والمراد: بنو يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[2].

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (روح المعاني) تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف:٢٤]: "جَمَعَ الخطاب؛ لأنَّه في قوَّة (خطاب النَّوع)"[3].

أقول: ويمكن أن يقال: إنَّ من (خطاب النَّوع) الآيات التَّالية:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:١٠٤].

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء:٤٧].

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون:٥١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل:١٨].

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ [النمل:٢٩، ٣٢، ٣٨]، و[القصص:٣٨].

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٣٠، ٣٢].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا﴾ [الجمعة:٦].

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم:٧].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧)، وانظر: الإتقان (٢/٨٨).

(٢) وإنما صرَّح به للطيفة يقول سيقت في (النَّوع السَّادس) وهو (علم المبهمات). انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧)، الإتقان (٢/٨٨). ويقصد الزَّركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره في (علم المبهمات) في كتابه (البرهان) أنَّه "قد يكون للشَّخص اسمان فيقتصر على أحدهما دون الآخر لنكتة، فمنه قوله عَزَّوَجَلَّ: في (مخاطبة الكتابيين): ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، ولم يذكروا في القرآن إلا بهذا دون (يا بنى يعقوب)، وسرُّه أنَّ القوم لما خوطبوا بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وذكِّروا بدين أسلافهم؛ موعظةً لهم؛ وتنبيها من غفلتهم، سُمُّوا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ (إسرائيل) اسم مضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ في التَّأويل..، ولما ذكر موهبته لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتبشيره به قال: ﴿يَعْقُوبَ﴾ وكان أولى من (إسرائيل)؛ لأنَّها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، وإن كان اسم (يعقوب) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبرانيا لكن لفظه موافق للعربيِّ من العقب والتَّعقيب، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنَّه من العجائب". بقليل من التصرف عن (البرهان) (١/١٦٠-١٦١).

(٣) روح المعاني (٨/١٢٩).

أقول: وفي الخطاب بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾، ونحوه من الأمثلة السَّابقة قد يشكل ذلك على المخاطَب من أيِّ الخطابين هو؟ هل هو من (خطاب الجنس) أم من (خطاب النَّوع)؟

ولكنَّ ذلك الإشكال يندفعُ بما حقَّقته من بيان صلاحيَّة هذا التَّمثيل لكلٍ من الخطابَين –أعني: الجنس والنَّوع– وذلك باختلاف النَّظر، فهو بالنِّسبة لما فوقه –أعني الحيوان– نوع، وبالنِّسبة لما تحته جنس. ولكنَّا لما علمنا أنَّ ما فوقه ممَّا لا يتوجَّه الخطاب له على عمومه؛ لأنَّه إنما أنزل للعاقلين المميِّزين قلنا بأنَّه من (خطاب الجنس)، وعلى ذلك يخرَّج قول من قال من المفسِّرين: إنَّه من (خطاب الجنس).

وإذا تقرَّر ذلك فإنَّه يقال في هذا الخطاب ما قيل في سابقه من كونه يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمِّ أنواع الخطاب (ما صَدُقًا)، أي: بالنِّسبة لما يندرج تحته من أفراد. ولكنَّ غير المكلَّف لا يدخل أصلًا في هذا الخطاب.

ثالثًا: نداء الاثنين:

فمن ذلك نداء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحبيه في السِّجن:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١].

رابعًا: نداء العين:

ومن ألوان النداء ما كان موجَّهًا إلى فرد، وهو ما يسمَّى (بخطاب العين). فمن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥]، ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ﴾ [هود:٤٨]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥]، ﴿يَا مُوسَى لا تَخَفْ﴾ [النمل:١٠]. ولم يقع في

القرآن الكريم النِّداء بـ: (يا محمَّد) بل بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١] تعظيمًا له وتبجيلًا وتخصيصًا بذلك عن سواه(١).

وقد قال أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البحر) في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]:"إنَّ نداءه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ هو على سبيل التَّشريف والتَّكرمة والتَّنويه بمحلِّه وفضيلته، وجاء نداء غيره باسمه، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة:٣٣]، ﴿يَا نُوحُ﴾ [هود:٣٢]، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [هود:٧٦]، ﴿يَا مُوسَى﴾ [البقرة:٥٥]، ﴿يَا دَاوُدُ﴾ [ص:٢٦]، ﴿يَا عِيسَى﴾ [آل عمران:٥٥]، وحيث ذكره على سبيل الإخبار عنه بأنَّه رسوله، صرَّح باسمه فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] أعلم أنَّه رسوله، ولقَّنهم أن يسمُّوه بذلك. وحيث لم يقصد الإعلام بذلك، جاء اسمه كما جاء في النِّداء: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠]، وغير ذلك من الآي. وأمره بالتَّقوى للمتلبس بها، أمر بالدَّيمومية عليها والازدياد منها.

والظاهر أنَّه أمرٌ للنَّبي، وإذا كان هو مأمورا بذلك، فغيره أولى بالأمر. وقيل: هو خطاب له لفظا، وهو لأمَّته"(٢).

أقول: والحاصل أنَّ الذي يتقرَّر في ذلك:

١ – يعسرُ التَّحقيق في أنَّ كلَّ نبيٍّ قد نودي باسمه في عهده، وفي ذلك تكلُّف، إن قال قائل بذلك.

٢ – إنَّ من الرُّسل من ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم بالوصف الذي يدلُّ على الرِّسالة، وذلك كما في قوله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣]، ولكن من غير نداء.

---

(١) الإتقان (٢/٨٨–٨٩).

(٢) البحر المحيط (٨/٤٥٠).

٣ – ورد ذكر (محمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) من غير نداء، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢].

٤ – إنَّ هناك الكثير من الأنبياء عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم لم يقع النِّداء أصلًا باسمهم، وإنما ذكر اسمهم كما ذكر اسم (محمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ).

وإذا تقرَّر ذلك عُلِمَ أنَّ التَّخصيص بالتَّشريف المذكور إنما هو مقصورٌ على نداءات القرآن الكريم فحسب –وهو الذي يعنينا هنا–، ولا يشمل الكتب السَّماوية الأخرى لانتفاء الدَّليل؛ إذ يعسر التَّحقيق في أنَّ كلَّ نبيٍّ نودي باسمه في عهده، وإنَّما علم ذلك من نداءات القرآن الكريم نحو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران:٥٥]، وما سبق.

خامسًا: إجمال تقسيم النداءات من حيث العموم والخصوص:

إنَّ القرآن الكريم تضمَّن نداءات يمكن تقسيمها من حيث العموم والخصوص إلى أقسام:

١ – نداءات خَصَّ الله عَزَّوَجَلَّ بها المصطَفين الأخيار ممَّن اجتباهم لتبليغ رسالاته، وهي من نداء الخاصِّ والمراد به الخصوص: ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

٢ – نداءات خاصَّة من وجه، وعامَّة من آخر جاءت بإحدى هذه الصِّيغ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:١٠٤]..، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا﴾ [الجمعة:٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم:٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

٣ – نداءات أكثر عمومًا وردت بإحدى الصِّيغ التَّالية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]..، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾ [الانفطار:٦]..، ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:٢٦].

٤ – نداء الخاصِّ والمراد به العموم: ومن الخاصِّ المراد به العموم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:١].

ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وقال أبو بكرٍ الصيرفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: "كان ابتداءُ الخطابِ له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلمَّا قال في (الموهوبة): ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ عُلم أنَّ ما قبلها له ولغيره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[(٢)]. وهذه قرينةٌ تدلُّ على العموم.

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق:١]، فقد افتتح الخطابُ بالنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمراد سائر من يملكُ الطَّلاق[(٣)].

٥ – نداء العامِّ والمراد الخصوص: ومن ذلك: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]. لم يدخل فيه الأطفال والمجانين.

---

(١) قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أبو بكر الصَّيرفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أئمَّة أصحابنا المتقدِّمين أصحاب الوجوه والمصنِّفين البارعين، اسمه: محمَّد بن عبد الله. قال الخطيب البغداديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تاريخ بغداد) (٤٤٩/٥): كان الصَّيرفيُّ فهمًا عالما له تصانيف في أصول الفقه، وسمع الحديث من أحمد المنصور ثم الرَّمادي ومن بعده، لكنَّه لم يرو كبير شيء. قال: وتوفِّيَ يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيعٍ الآخر سنة (ثلاثين وثلاثمائة). قال السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الأنساب) (٥٠٤/٢): هو بغداديٌّ فهم عالم ذكيٌّ. وقال غيرهما: كان إمامًا بارعًا متفنِّنًا، وله مصنَّفات في الأصول وغيره، وله وجوه كثيرة في (المهذَّب). ومن غرائبه: إيجابه الحدَّ على من وطىء في النِّكاح بلا وليٍّ إذا كان يعتقد، والجمهور قالوا: لا حدَّ". تهذيب الأسماء (١٩٣/٢-١٩٤).

(٢) انظر: البرهان (٢١٨/٢)، الإتقان (٨٨/٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٤٨/١٨).